

## بسم الله الرحمن الرحيم

### توطئة

كلما تعمق الباحث في ميادين تاريخ الحروب المسيحية ، يجند نفسه وسط مجموعة هائلة من الاسئلة التي تحتاج الى اجابات موثقة ، ويبقى على رأس الاسئلة: ما هو سر الاستجابة الشعبية الهائل للبناء الذي اطلقه البابا اوربان الثاني؟ ما الذي حرك مننات الالوف من الاوربيين للزحف نحو الشرق وتحمل مخاطر الحملة؟ ثم ما سبب الحقد المرعب الذي حمله افراد الحملة الاولى تجاه المسلمين في المشرق الى حد انهم لم يكتفوا بآبادتهم بل اكلوا لحومهم بعد قتلهم؟

لقد عرف التاريخ عددا من موجات هجرات الشعوب ، وجلها كانت هجرات شعوب بدوية ، لكن ان يهجر الناس مدنهم وقراهم ويرحلون نحو الشرق باسم الحج وتخليص الاماكن المقدسة من ايدي المسلمين فهذه ظاهرة فريدة من نوعها تحتاج الى البحث عن اسبابها البعيدة والقريبة.

وعبثا يحاول المرء ان يجد الاجابات الكاملة المقنعة في الروايات عن تعذيب الحجاج ، او في ازمات نظام الاقطاع الاوربي وقراكماته ، يضاف الى هذا ان الحديث عن الرغبات في توحيد الكريستين الشرقية والغربية لا يقنع ، لاسيما ان ايا من زعماء الحملة الاولى لم يثر هذا الموضوع مع اركان الكنيسة الارثوذكسية او مع الامبراطور البيزنطي . هذا وإن الحديث عن دور الدول الايطالية والاهداف الاقتصادية سيكون متأخرا يرتبط بما حدث بعد

الحملة الثالثة ، وتبقى المسألة ليست معلقة بما إرادته البابا اوربان الثاني او غيره لكن بالاستجابة الشعبية الهائلة لنداء الزحف نحو المشرق.

وعندي ان افراد الحملة الاولى عندما اكلوا لحوم العرب المسلمين فعلوا برغبة الانتقام والتشفي وليس بسبب الجوع والحاجة الى الطعام ، فما سر هذا الحقد الدفين لدى الأوربيين ، ومتى وكيف تكون؟

من المؤسف ان المصادر التاريخية لاتحمل الاجابة ، لكنها تساعد على رسم الاجواء التي عاشها الغربيون منذ القرن الثامن للميلاد حتى واخر القرن الحادي عشر.

المجتمع الاوربي كان مغلقا الى حد بعيد ، شغلت فيه الكنيسة الدور القيادي الموجه مثلما شغلت دور مقر الثروة والثقافة والقيادة الشعبية ، واذا ما عدنا الى اخبار نشاط الفتوحات العربية في اوربا الغربية نجدها استهدفت الكنائس والابيرة ، وذلك في كثير من الحالات.

ومع هذا لانجد في مدونات الكنائس والابيرة ما نبحت عنه من اجابات ، اننا نجد ذلك في الملاحم الشعبية ، فالشعوب الصانعة الفعلية للتاريخ عبرت ان ارادتها ورغباتها وتصوراتها لاحداث التاريخ وعن مشاعر العدا او الصداقة من خلال الملاحم الشعبية ، وكتب التاريخ ، وان لم تخل من بعض المانة عن الجماهير ، هي بالاصل سجلات لاعمال القانة والحكام.

وفوائد الملاحم كبيرة وكذلك عيوبها ، فالملاحم لاتتقيد بالتاريخ بدقة ولاتعطي الزمن قيمة كبيرة ، ولعل مرد ذلك ان التغييرات التي تنال الشعوب بعمق هي دوما بطيئة الحركة لاتتوافق ولاتماشى مع التغييرات السياسية.

ولايحوز لابي باحث تجاهل الملاحم والتمنع عن التعامل معها ، لوجودها ولاته لسوء الحظ لم يتوفر للجماهير من يؤرخ لها جماعة او فردا فردا ، وكان على رأس الملاحم التي اسمت في صياغة الرأي الجماهيري العام في غربي اوربا تجاه الاسلام والمسلمين ، وذلك بشكل عدواني رهيب فيه روح التعصب والانتقام : ملحمة نشيد رولاند .

ولن اتحدث عن محتويات هذه الملحمة فقد جاء هذا في مقدمة الترجمة ، ولقد بحثت عن نظير لهذه الملحمة في اوربا الشرقية فلم اجد ، وتعاملت مطولا مع ملحمة « دايجيس اكريتس » فلم اجدتها تفي بالغرض.

ومع نشيد رولاند قدمت ملحمة رتشارد قلب الاسد ، لقوة الترابط ، ولأن شعراء هذه الملحمة ساروا على الطريق الذي عبده شعراء نشيد رولاند وتفوقوا عليهم تعصبا.

وأنه لأمر مثير للدهشة ان نجد صورة الاسلام والمسلمين لدى شعوب اوربا الغربية كما هي مرسومة في الملاحم ، على قرب اوربا الغربية من الاندلس وصقلية ، واعظم اثاره واشد غرابة استمرار هذه الصورة مع الجهالة بعد مضي قرن على قيام الحروب الصليبية ، فهذا مانراه لدى وليم الصوري وسواه من كتاب الغرب المسيحي - لابل حتى عند الشرقيين - ومرد هذا ان جل الكتاب هم من رجال الكنيسة ، ورجال الدين لايرغبون دوما في تغيير قناعاتهم الموروثة وتصوراتهم ، وهم ابعد الناس عن استخدام المحاكمة العقلية الصحيحة ، وهم في اوربا مثلوا الذقافة والعقيدة ووجهوا الجماهير وقادوها ، وقد يساعد هذا على تفهم جذور اسباب بعض الحركات الاصلاحية التي استهدفت تدمير الكنيسة.

ومما لا ريب فيه ان الحروب الصليبية اثرت على اوربا الغربية والكنيسة فيها ، ومع ان اوربا هزمت في نهاية هذه الحروب عسكريا

في المشرق لكنها كانت قد حققت انتصارات هائلة في الغرب ، لأنها استعارت الخبرة الحضارية العربية لاسيما في مجالات التعامل مع العقل ، وبذلك اتيح لها ملكة المستقبل ، لكن وقتها فقد العرب المستقبل لانهم منذ ايام الحروب الصليبية شرعوا بالتخلي عن العقل تدريجيا ، فالجند الغريب وقفوا دوما ضد العقل وكذلك شجعهم جل الذين تحالفوا معهم من رجال الدين ، فضلا عن ان التصوف كان قد تحول من حركة تفكر الى استسلام وغيبيات وطقوس غناء وطعام ورقص جنوبي

سيعثر القارئ العربي على كدوز من صور المشاعر في ملحمتي نشيد رولاند ورتشارد قلب الاسد ، واملي عظيم في ان يساعد هذا على دراسة اوفى لظاهرة الحروب الصليبية ، والله الموفق للسداد وهو من وراء القصد ، له الحمد والشكر - والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

القاهرة ٢٦ / ١١ / ١٩٩٤

سهيل زكار